المحاضرة العاشرة -١٠-
المشرق العربي والمخططات الإستعمارية

مقدمة:

حتى نهاية القرن ١٨م لم تكن بلاد المشرق العربي قد واجهت ضغطا مباشرا من الاستعمار الأوربي بل كان الضغط موجها إلى ولايات السلطنة العثمانية في البلقان. أما اهتمام الدول الأوربية بالمشرق العربي، فكان مركزا على الناحية التجارية.

ولكن بعد الحملة الفرنسية لاحتلال مصر عام ١٧٩٨م دخلت كل من انجلترا وفرنسا حلبة التنافس الاستعماري على بلاد المشرق بدءًا بالتغلغل الاستعماري تحت ذرائع واهية ثم تطور إلى مخططات استعمارية وتنافس شرس على مناطق النفوذ، انتهى بعد الحرب العالمية الأولى إلى احتلال واستعمار وهذا ما سنتطرق إليه في هذه المحاضرة.

المشرق العربي من التغلغل إلى المخططات الاستعمارية:

إن الحملة الفرنسية على مصر فتحت حقبة جديدة من الصراع الاستعماري بين فرنسا وبريطانيا حول السيطرة على المشرق العربي هذه السيطرة لم تبق كما كانت في الماضي محدودة بالمجال الاقتصادي بل تعدته إلى الميادين السياسية وإلى الاحتلال العسكري مهدت له عقود طويلة "من السنين" من العلاقات التي ربطتها الدول الاستعمارية بالحكام والولاة التابعين إسميا للدولة العثمانية. وكانت هذه العلاقات الخاصة ذات طابع اقتصادي في ظاهرها ولكنها تحمل في ظروف الضعف والانحطاط كل بذور السيطرة السياسية ومقدمات الاحتلال العسكري. ففي منطقة الخليج العربي كانت الخطوات الأولى للإستعمار البريطاني تبدو في ثوب المنقذ للمنطقة من الاستعمار البرتغالي. وكانت شركة الهند الشرقية البريطانية التي اتخذت لها مراكز تجارية في الخليج العربي وفي البحر الأحمر وبالأخص في بندر عباس وفي الـ"موخة" "Mokha" تبدو كمجرد علاقات اقتصادية ولكنها فتحت

المجال للتغلغل البريطاني في الخليج ونحو العراق «وكان لبريطانيا مواقع تجارية في البصرة منذ عام ١٨٧٦م» وكان العراق في القرن ١٨م يخضع لأسرة مملوكية تطمح إلى الاستقلال عن الدولة العثمانية. ولهذا فهي في حاجة إلى مساعدة دولة كبرى مثل بريطانيا، التي استغلت هذا الطموح نحو الاستقلال لتنفيذ خطة إستراتيجية ترمي إلى إحكام سيطرتها على هذه المناطق التي تعتبر إحدى الطرق الرئيسية الرابطة بين الهند ومنطقة الشرق الأدنى والبحر المتوسط.

استغل الإنجليز الأحداث المرتبطة بالحملة الفرنسية وما تلاها من اضطراب في الأوضاع في المنطقة لفرض سلسلة من الاتفاقات التي أدت في النهاية إلى الاحتلال العسكري على المناطق المشرفة على بابا المندب وبالأخص "عدن" ثم فرضت بريطانيا حمايتها على سلطنة عمان عام ١٨٩٢م ومما يلفت الانتباه أن الانجليز استعملوا نفس الحجج التي استعملها الفرنسيون تجاه الجزائر وهي القضاء على القرصنة وعلى العبودية. مع ملاحظة أنه بعد احتلال بريطانيا لهذه المناطق أباحت فيها لمدة طويلة تجارة الرقيق باعتبار أن سكان الخليج كانوا يعيشون منها. واستغل البريطانيون كذلك تخوف مشايخ الخليج من انتشار الحركة الوهابية داخل الجزيرة العربية لفرض حمايتهم على هؤلاء المشايخ، وقبل نهاية القرن ١٩م كانت تقريبا كل مشيخات الخليج وشرق الجزيرة العربية من "لحج إلى حضرموت" محميات بريطانية تقيم فيها حاميات عسكرية انجليزية وتسير بشكل أو بآخر حسب خطط وإستراتيجية انجليزية. وكان الإنجليز يتمتعون بوضعية خاصة داخل العراق ليس فقط في ميناء البصرة بل كذلك بغداد حيث كانت لقنصليتها حامية عسكرية صغيرة وكانت ترسو باستمرار أمام هذه القنصلية سفينة عليها ٢٥ بحارًا وضابط، وكانت الملاحة النهرية في العراق بيد الإنجليز. وأصبح نفوذها في هذه الفترة له طابع سياسي قوي، وعندما تخوفت بريطانيا من تزايد النفوذ الألماني داخل الدولة العثمانية وبالأخص من النتائج التي قد تترتب على مدّ سكة حديد الأناضول إلى بغداد ومنها البصرة والخليج بدأت تسعى لسدّ الباب أمام الألمان فعقدت اتفاقية مع شيخ الكويت عام ١٨٩٩م تعهدت فيها بأن لا يعقد أية اتفاقية مع دولة أخرى وأن لا يتنازل عن أي جزء من أراضي الكويت وأن لا يؤجره لأية دولة أو شركة غير بريطانية. وفي

مقابل ذلك منحته مساعدة مالية وتعهدت بحمايته من أي هجوم خارجي، وبما أن الكويت جزء من الدولة العثمانية فإن الحكومة العثمانية حاولت منع تنفيذ هذه الاتفاقية، لكن وجود بارجة حربية بريطانية أمام ميناء الكويت جعل العثمانيين يكتفون بالإحتجاج اللّفظي على هذا التعدي على جزء من الأراضي العثمانية.

أما الفرنسيون:

فقد جعلوا من سوريا منطقة نفوذ استعماري. وكان لفرنسا دور كبير في الحروب الصليبية جعلها تعتبر نفسها حامية الأرض المقدسة وكانت صلتها قوية بالمسيحيين اللبنانيين خصوصا بعد حصولها على الامتيازات المعروفة بحكم معاهدة ١٥٣٥م بين السلطان سليمان القانوني وفرنسوا الأول. هذه المعاهدة التي منحت فرنسا حق حماية الأقليات الكاثوليكية وتبني لويس ١٤ ملك فرنسا الجالية المارونية في لبنان بعد زيارة الأساقفة المارونيين لفرنسا عام ١٦٤٦م وازداد عدد الكاثوليك في سوريا بسبب اتساع نشاط البعثات التبشيرية وانتشار المدارس التابعة لهذه البعثات. وقد كان للتغلغل الاستعماري الفرنسي واستعمال المارونيين كأداة لهذا التغلغل عواقب وخيمة بين المسلمين والمسيحيين في سوريا ولبنان توجت في الاضطرابات التي حدثت في لبنان عام ١٨٦٠م والتي أدت إلى تقتيل عدد كبير من المارونيين. وقد فتحت هذه الاضطرابات الفرصة لتدخل الفرنسيين باسم حماية المسيحيين.

إن بوادر الاضطرابات بدأت حين تحرك الفلاحون الموارنة بتحريض من رجال الدين في سنة ١٨٥٧م ضد الملاك الإقطاعيين المارونيين والدروز ورفضوا دفع إيجارات الأرض كما استولوا على اقطاعات هؤلاء الملاك وقسموها فيما بينهم. وكانت هذه الاضطرابات فرصة للتدخل الفرنسي لتشجيع الموارنة والبريطانيين لمساعدة وتشجيع الدروز وربطوا معهم علاقات وثيقة استمرت مدة طويلة من الزمن. في اضطرابات عام ١٨٦٠م قتل الدروز ما يقرب من ١٤ ألف ماروني وفي دمشق قتل حوالي "٥" خمسة ألاف مسيحي. وأرسلت فرنسا بموافقة الدول الكبرى حملة

عسكرية إلى لبنان استمرت سبعة (٧) أشهر، ثم جاءت لجنة تحقيق دولية قدمت تقريرا عن الأوضاع في لبنان وأوصت بإقامة نظام خاص لجبل لبنان وهو المعروف بسنجقية أو متصرفية لبنان قوامه الحكم الذاتي بيد حاكم مسيحي يعينه الباب العالي بالتشاور مع الدول الكبرى.

وبعد ذلك نصت معاهدة برلين عام ١٨٧٨م على حق فرنسا في الأماكن المقدسة وظلت فرنسا تزاول نشاطا اقتصاديا وثقافيا في المنطقة وكانت مكاسب مؤتمر برلين آخر مكسب للفرنسيين لأن هزيمة فرنسا في حرب السبعين أمام بروسيا أضعفت من دورها العالمي. ومن مظاهر التنافس كذلك بعد حوادث لبنان أرسل الفرنسيون مندوبا إلى أمير "شمَرْ" ومباشرة أرسل البريطانيون مندوبا من نفس الوضع وهو الأمير آل سعود أمير نجد.

إن هذا النفوذ الفرنسي المتزايد في سوريا وغيرها من مناطق آسيا العثمانية أو "الولايات العربية العثمانية" أخذ يتناقص بعد أن تحالفت فرنسا سنة ١٨٩٤م مع روسيا العدو التقليدي للدولة العثمانية في العشرية الأولى من القرن العشرين تفوق نفوذ التجار الألمان والنمساويين والإيطاليين على النفوذ التجاري الفرنسي.

وبعد أن كانت الدولة العثمانية تعتمد على الفرنسيين والإنجليز لصَدِ الخطر الروسي اتجهت نحو الألمان الذين رحبوا بهذا التقارب الذي يمكنهم من استغلال بلاد غنية بمواردها الأولية وتكون سوقا لبضائعهم الصناعية، ولها موقع جغرافي ممتاز.

إن مظاهر النفوذ الألماني كانت في نفس الوقت سياسية وعسكرية واقتصادية وثقافية. سياسيا كان للسفير الألماني والمستشارين الألمان دور كبير في إسطنبول.

أهمية البعثات العسكرية التي دربت الجيش العثماني وكان على رأسها بعض كبار جنرالات الجيش الألماني. وفي سنتي ١٨٨٩م و١٨٩٨م قام الإمبراطور الألماني "غليوم الثاني" "Guillaume II" بزيارة الدولة العثمانية "إسطنبول، دمشق والقدس".

ومن المظاهر الاقتصادية للنفوذ الألماني في الدولة العثمانية خط حديد "برلين بغداد"* وتزويد العثمانيين بالأسلحة من كل نوع وكذلك بأدوات صنع الأسلحة، وزيادة المبادلات التجارية خصوصا في سوريا وفلسطين وإنشاء البنك الألماني الفلسطيني الذي له فروع في بيروت ودمشق وغزة وحيفا ونابلس والقدس وطرابلس الشام إلى جانب عدّة بنوك ألمانية أخرى، كثرة المهندسين والمستشارين، والمدربين والأساتذة الألمان في المدارس والكليات العسكرية، بحيث كان للثقافة الألمانية نفوذ كبير في هذه الفترة، ويظهر هذا النفوذ في جيل المثقفين العرب والعثمانيين.

لم تستطع كل من انجلترا وفرنسا أن تسكتا على النفوذ الألماني المتزايد. فقد رأت انجلترا في مشروع سكة حديد بغداد تهديدا لمصالحها ومواصلاتها في الخليج العربي والعراق. ورأت فرنسا في الخط الممتد من حلب إلى الإسكندرونة تهديدا لأطماعها في سورية ولبنان.

وعليه فقد أعلنت انجلترا معارضتها للمشروع الألماني إلا إذا جعلت نهاية الخط الحديدي في البصرة بدلا من الكويت. وأن تقوم شركة إنجليزية بمدّ الخط الحديدي من بغداد إلى البصرة حتى تضمن إبعاد النفوذ الألماني عن جنوب العراق والخليج العربي.

وبالرغم من تفاهم ألمانيا وانجلترا على بعض التحفظات للقيام بالمشروع إلا أن قيام الحرب العالمية الأولى عطل بقية المشروع.

وهكذا نلاحظ من هذا التنافس بين الدول الكبرى أنه كان عبارة عن مخططات استعمارية على بلاد المشرق العربي وشبه اتفاق على توزيع مناطق النفوذ بين الدول الكبرى. فيكون لألمانيا النفوذ الاقتصادي في الأناضول، وشمال العراق، ولإنجلترا النفوذ في جنوب العراق والخليج العربي وجنوب فارس، ولفرنسا سوريا ولبنان، ولروسيا، بلاد فارس وتركستان وبلاد آسيا الوسطى الإسلامية.

---

*– في الأراضي العثمانية يبدأ من قونية فحلب إلى الموصل فبغداد فالبصرة ثم ينتهي عند الكويت، ويمتد فرع منه من حلب حتى الإسكندرونة حتى يتم ربط الولايات السورية والعراق بمراكز الدولة العثمانية ويسهل بسط نفوذه عليها.

وعندما قامت الحرب العالمية الأولى وانهارت الدولة العثمانية تحولت مناطق النفوذ الأوربي إلى مناطق احتلال واستعمار تحت مسميات جديدة.

قائمة المصادر:

- انطونيوس جورج، يقظة العرب، تاريخ حركة العرب القومية، ترجمة ناصر الدين الأسدى وإحسان عباس، الطبعة الثامنة، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ١٩٨٧م.
- البستاني سليمان، عبرة وذكرى، الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده، تحقيق ودراسة خالد زيادة، الطبعة الأولى، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ١٩٧٨م.
- الحصري ساطع، البلاد العربية والدولة العثمانية، الطبعة الثانية، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ١٩٦٠م.
- حليم إبراهيم بك، التحفة الحلمية في تاريخ الدولة العثمانية، مؤسسة الكتب الثقافية للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٩٨٨م.
- محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق الدكتور إحسان حقي، الطبعة الثانية عشرة، دار النفائس، بيروت، لبنان، ١٤٣٣هـ-٢٠١٢م.
- على محمد كرد، سكة الحجاز، مجلة المقتطف، الجزء ١١، المجموعة ٢٢، القاهرة، مصر، ١٩٠٤م.